ثم يجيء الحق بعد ذلك فى الآية التالية ليكمل الوصايا فيقول :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) ﴾

ونعلم أن اليتيم هو من فقدأباه ، ولم يبلغ مبلغ الرجال ، هذا فى الإنسان ، أما اليتيم فى الحيوان فهو من فقد أمه . وقوله الحق :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ .. (١٥٢) ﴾ [سورة الأنعام]

هنا يفرض سبحانه أن اليتيم له مال ، فلم يقل : لاتأكل مال اليتيم . بل أمرك ألا تقترب منه ولو بالخاطر ، ولو بالتفكير ، وعليك أن تبتعد عن هذه المسألة . وإذا كان قد قال : ﴿ولاتقربوا مال اليتيم﴾ فهل هذا الأمر على إطلاقه؟ . لا ؛ لأنه أضاف وقال بعد ذلك : ﴿ إلا بالتى هى أحسن﴾ أى بأن نُثَمِّرَ له ماله تثمراً يسع عيشه ، ويبقى له الأصل وزيادة ، ولذلك قال فى موضع آخر :

﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. (٥) ﴾ [سورة النساء]

فلا يأخذ أحد مال اليتيم ويدخره ، ثم يعطيه منه كل شهر جزءاً حتى إذا بلغ الرشد يجد المال قد نقص أوضاع ، لذلك لم يقل : ارزقوهم منها ، بل قال : ﴿وارزقوهم فيها﴾ أى ارزقوهم رزقاً ناشئاً منها . فَمَالُهم ظرفية للرزق ، ولايتأتّى هذا إلا بأن تنموها لليتيم ، ولانحرم الوصاية على اليتيم لرعاية ماله من أصحاب

الكفاءات فى إدارة الأعمال والأمناء ، وقد يوجد الكفء فى إدارة العمل ، والأمين فيه لكن حاله لا ينهض بأن يتحمل تبعات ومؤنة حياته وقيامة بإدارة أموال اليتيم ؛ فقال - سبحانه - فى ذلك :

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ .. ⦗٦⦘ ﴾ [سورة النساء]

أى أن يهب الوصىّ تلك الرعاية لله ، وحين يهب تلك الرعاية لله ولا يأخذ نظير القيام بها أجراً ؛ يضمن أنه إن وُجدَ فى ذريته إلى يوم القيامة يتيم فسيجد من يعوله حسبة لله وتطوعاً منه مدخرا أجره عند الله . والحق هو القائل :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ⦗٩⦘ ﴾ [سورة النساء]

وحينما يجد اليتيم من يرعاه ، وحين يتعاطف المجتمع مع كل يتيم فيه ، ويتولى أمور اليتامى أناس أمناء قادرون على إدارة أمورهم فسوف يقل جزع الإنسان من أن يموت ويترك صغاره ؛ لأنه سيجد كرامة ورعاية لليتيم ، فالناس تخاف من الموت لأن لهم عيالاً صغارا ويرون أن المجتمع لا يقوم برعاية اليتامى ، لكن الإنسان إن وجد اليتيم مكرما ، ووجده آباء من الأمة الإسلامية متعددين ، فإن جاءه الموت فسوف يطمئن على أولاده لأنهم فى رعاية المجتمع ، ولكن لا تنتظر حتى يصلح شأن المجتمع بل أصلح من نفسك وعملك تجاه أى يتيم ، ويمكنك بذلك أن تطمئن على أولادك فستجد من يرعاهم بعد مماتك ، وحين يرعى المجتمع الإيمانى كل يتيم ستجد الناس لا تضيق ذرعا بقدر الله فى خلقه بأن يموت الواحد منهم ويترك أولادا . والمثل واضح فى سورة الكهف بين العبد الصالح وسيدنا موسى حينما مرّا على قرية :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا .. ⦗٧٧⦘ ﴾ [سورة الكهف]

فلم طلبا نقوداً ليدخراها ، ولكنهما طلبا طعاماً لسد الجوع ، وهذه حاجة مُلحّة . ومع أنهما استطعما أهل القرية أبى أهل القرية أن يضيفوهما . ومعنى ذلك

أنها قرية لئيمة الأهل . وعلى الرغم من العبد الصالح وجد ردّهم علية وامتناعهم عن إطعامهما ، ولكنه عندما وجد جداًر ، وبفراسته علم أن الجدار يريد أن ينقض ، وكأن الجدار له إدارة ، فأقام الجدار ، ولأمه سيدنا موسى عليه السلام ، وكان سيدنا موسى منطقيا مع نفسه ، فقد طلب هو وشيخه من أهل القرية مجرد الطعام فرفضوا ، فكيف ترد عليهم بأن تبنى لهم الجدار ، وكان يجب أن تأخذ على البناء أجرة ، فهم قوم لئام ، هذا كلام موسى . لكن العبد الصالح جازاهم بما يستحقون ؛ لأنه ببنائه الجدار قد حال بينهم وبين أخذ الكنز ، لأنه لو ترك الجدار ينهار لظهر الكنز الذى تحته وهو ليتمين ، وهكذا عرف العبد الصالح كيف يربيهم . وبعد ذلك أراد الله أن يشرح لنا أن الجدار لغلامين يتمين فى المدينة .

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا .. (٨٢) ﴾ [سورة الكهف]

فكأن استخراج الكنز مقارن ببلوغ الرشد ، وكأن العبد الصالح قد بنى الجدار بناء مؤقوتا ، بحيث لا ينهار إلا حين يبلغ الغلامان مبلغ الرشد ، لقد بنى العبد الصالح البناء وكأنه يضبط الميقات فلا يتماسك الجدار إلا لساعة بلوغ الغلامين أشدهما ، وعندئذ يستخرج الغلامان كنزهما . وبعد ذلك جاء لنا بالحيثية لكل ذلك ، فقال سبحانه :

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا .. (٨٢) ﴾ [سورة الكهف]

فكأن صلاح الأب هو الذى أراد به الحق أن يظهر لنا كيف حمى كنز الأبناء ، فيأتى العبد الصالح وموسى لأهل القرية اللئام ، ويطلبان طعاماً ، فلا يطعمونهما ، فيبى العبد الصالح الجدار الموقوت الذى يصون الكنز من اللئام . والحق يقول هنا :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٥٢) ﴾ [سورة الأنعام]

من لا يقدر على قرب مال اليتيم بالتى هى أحسن فليبتعد عنه .

وحتى لا يتحرز ويتوقى الناس من رعايتهم مال اليتيم ، قال سبحانه :

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

وكلمة « فليأكل بالمعروف » أى لا يكتنز ولا يدخر منه أبداً ، بل يأكل بما يدفع الجوع فقط ويكتسى مايستر جسمه . ونعرف أن اليتيم لم ينضج عقله بعد ، وكذلك الكبير السفيه هو أيضاً لا يقدر على التصرف ؛ لذلك قال الحق فى أدائه البيانى حيث يؤدى اللفظ ما يوحى بالمعانى الواسعة :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

وجعل الحق مال السفيه فى مرتبة مال الولى ؛ لأن السفيه لا يحترم ملكيته وقد يبددها . ولكن المال يعود لهذا الإنسان حين يذهب عنه السفه فيقول الحق :

﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إنه أداء قرآنى عجيب ، يشجع الناس ألا يتركوا السفيه يبدد ماله فتكون خسارة للمجتمع كله ، فمادام هو فى سفه فانظر إلى المال كأنه مالك ، ولتكن أميناً عليه أمانتك على مالك . وعندما ترى وتجد رشده وتطمئن على ذلك ، فإن الحق يأمرك أن تعيد له ماله . ونعود إلى اليتيم ، هنا يقول الحق :

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ﴾ .

هذا إن كان له مال ، فماذا عن اليتيم الذى لا مال له ؟ . هنا تكون الوصية أقوى ، عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » (وأشار بالسّبابة والوسطى وفرّج بينهما)[1] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) رواه البخارى ، والترمذى ، وأبو داود .

« الساعى على الأرملة والمساكين كالمجاهد فى سبيل الله وكالذى يصوم النهار ويقوم الليل »[١] .

وخذوا بالكم واجعلوا مسح رأس اليتيم لله ، فمن الجائز أن تكون لليتيم أم جميلة ، ويريد الولى أن يتقرب منها عن طريق الولد ، احذروا ذلك ، فإنه فضلاعلى أنه يسخط الله ويغضبه فهو خسة ولؤم ونذالة .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

لم يقل الله ـ سبحانه ـ بالتى هى حسنة ولكنه قال : ﴿ بالتى هى أحسن ﴾ لتشديد الحرص على مال اليتيم حتى يبلغ أشده لأن بلوغ الأشد ، يعنى أن اليتيم صارت له ذاتية مستقلة ، وما المعيار فى الذاتية المستقلة ؟ ؛ أن يصبح قادراً على إنجاب مثله ، وهذا معيار النضج . مثله مثل الثمرة حين تنضج ؛ أى صارت البذرة التى فيها صالحة لأن نضعها فى الأرض لتكون شجرة . وأنت إن قطفت الثمرة قبل أن تنضج لا تجد طعمها حلوا ، ولا تستسيغ مذاقها إلا حين تستوى البذرة وتنضج .

و « الأشد » أى أن الإنسان يصير قادراً على إنجاب مثله وهو ما نسميه البلوغ ، ويصبح أيضاً قادراً على حسن التصرف فى المال وفى كل شىء . ويتابع سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

والكيل هى المعايير لما يكال حجماً ، والموازين هى المعايير لما يُقَدَّر كثافة ، فهناك معيار للحجم ومعيار للكثافة . معيار الحجم الكيل ، ومعيار الكثافة هو الوزن ، وهناك أيضاً التقديرات العادلة فى القياس ، للأقمشة مثلاً ، المقياس فيها هو المتر ، إذن كل شىء بحسبه ، وإذا أردت الموزون فلابد أن يكن بالقسط ، أى بالعدل .

وهذه المسألة من الصعب تحقيقها ، ولذلك تختلف الموازين باختلاف نفاسة الأشياء ، فحين نزن الفول أو العدس أو البطاطس أو القلقاس ، فنحن نزنه بميزان

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد .

كبير ؛ لأن فرق الميزان قد يكون حول الكيلو جرام، فالأمر حينئذ يكون مقبولاً . وحين نزن أشياء أثمن قليلاً ، نأتى بالميزان الدقيق . فإن كان الشيء الموزون ذهباً نحيط الميزان بجدران زجاجية لأن لفحة الهواء قد تقلل أو تزيد الوزن .

إننا نحاول أن نمنع تأثير تيارات الهواء عليها . وحين نزن المواد الكيماوية نأتى بميزان يعمل بالذرة . إذن كل موزون يأخذ درجة ميزانه بمقدار نفاسته وتأثيره ؛ لأن تحقيق العدالة فى الميزان مسألة صعبة ، وكذلك الأمر فى الكيل . فحين يكيل الإنسان كيلاً يمسك إناء الكيلة ويهزه ؛ حتى يأتى الميكال دقيقاً محرراً ، وإن أراد أن يلغى ضميره ويأخذ أكثر من حقه فهو يملأ المكيال بأكثر مما يحتمل ويسند الزيادة بيده حتى لاتقع . وربنا يقول :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾ [سورة المطففين]

فحين يكتال يستوفى ويطفف أى يزيد ماسوف يأخذه شراء ، وحين يبيع يقلل الكيل أو الوزن ليأخذ ثمناً أكثر من ثمن مايزن أو يكيل . وأصل المبادلات غالباً بين طرفين ، وبعض المتنطعين يقول : كيف يقول الحق : ﴿ويل للمطففين﴾ والتطفيف فى أى مسألة يكون بالزيادة ، لا بالنقص . ونقول : انتبه إلى أن المتحدث هو الله ، والتطفيف يزيد طرفاً وينقص من طرف ، وكل صفقة بين اثنين فيها بيع وشراء . فإن أراد واحد أن يجعل الخسران على طرف وأن يستوفى لنفسه فهو مطفف .

ولذلك تأتى دقة الأداء القرآنى من ربنا :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا . . (١٥٢) ﴾

[سورة الأنعام]

وقال الحق ذلك لأنه يعلم أن الكيل والميزان بالعدل أمر متعذر ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لواسع رحمته فى التشريع لنا لم يجعل مجال الاستطاعة أمراً يمكن أن تتحكم فيه أشياء لاتدخل فى الاستطاعة ؛ ففى ضبط المكيال والميزان قال : ﴿لانكلف نفساً

نفساً إلا وسعها ﴾ لأن المكيال والميزان أداتان تتحكم فيهما ظروف لا تدخل فى نطاق الإنسان . ولذلك قلنا : إن وزن الأشياء التى نعلمها إن كانت من الأشياء التى ليست فيها نفاسة فوزنها له آلة . وإن كانت فى المتوسط فوزنها له آله ، وإن كان فى الأشياء النفيسة الدقيقة التى للقدر الصغير فيها قيمة مؤثرة ، فإن لها آلة مضبوطة مصونة من عوامل الجو حتى لا تتأثر بهبّة الهواء ، فقول الحق : ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ إباحة للأشياء الزائدة أو الناقصة التى لا تدخل فى الاستطاعة ، ثم قال سبحانه :

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ..(١٥٢) ﴾ [سورة الأنعام]

نعلم أن القول نسبة كلامية ينطق بها المتكلم ليسمعها مخاطب ، ينفعل للمطلوب فيها خبراً أو إنشاءً ، والقول مقابله الفعل ، وكلاهما عمل ، فالقول عمل والفعل عمل ؛ قل أو افعل ، فافهم أن القول متعلق بجارحة اللسان ، والفعل متعلق بكل الجوارح ما عدا اللسان ، فإذا رأيت ، وإذا سمعت ، وإذا شممت ، وإذا لمست كل ذلك يطلق عليه أنه فعل ، ولكن إذا ما تحرك اللسان فذلك قول : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ .

وهل العدل مقصور على القول؟ أو العدل أيضاً يكون فى الفعل؟ إن العدل قد يكون فى خلاف بين اثنين ، وهذا لا يتأتى بفعلك ، وإنما يتأتى الحكم والفصل فيه بقولك ، وإذا ما تعودت العدل فى قولك ، ألفته وأنست به وأحببته حتى فى أعمالك الخاصة الأخرى .

والقول منه الإقرار ، وإن تقر على شىء فى نفسك فقله بالعدل وبالحق ، والشهادة . قلها بالحق ، والحكم . قله بالحق . والوصية . قلها بالحق . والفتوى . قلها بالحق . إذن فالحق فى القول أمر دائر فى كثير من التصرفات ؛ لأنك إذا قلت بالحق أمكنك أن تعدل ميزان حركة الحياة ؛ فميزان حركة الحياة لا يختل إلا إن رجح باطل على حق ؛ لأنك إذا حكمت لواحد بشىء لا يستحقه فقد أعطيته ما ليس له ، وإنك بعملك هذا تجعل المتحرك فى الحياة يزهد فى الحركة . لكن إذا ما حافظت على حركة كل متحرك ، وأخذ كل واحد حظه من الحياة بقدر ما يعمل اتزنت كل

الأمور ، ولم يعد هناك قوم يعيشون على جهد غيرهم وعرق سواهم ، إذن فقول العدل هو مناط حركة الحياة الثابتة المستقيمة الرتيبة الرشيدة : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ .

والذى يؤثر فى العدل هو الهوى ، وحين يوجد الهوى فهو يحاول أن يميلك إلى ناحية ليس فيها الحق ، وأولى النواحي أن يكون الأمر متعلقاً بك أو بقرابة لك ، وقد تريد إن حكمت ـ والعياذ بالله ـ باطلا ، أن تسعد ذا قرباك ،وأنت بذلك لم تؤد حق القرابة ؛ لأن حق القرابة كان يقتضى أن تمنع عنه كل شيء محرّم وتحمى عرضه ، وتحمى دينه قبل أن تحمى مصلحته فى النفعية الزائلة . ولذلك يأمرك الحق بأن تقول الكلمة بالعدل ولو كان المحكوم له أو عليه ذا قربى ؛ لأنك حين تحكم بالباطل فأنت فى الواقع حكمت عليه لا له .

﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

ونحن نعلم أن عهد الله هو ما عاهدنا الله عليه ، وأول عهد وقمة العهود هو الإيمان به سبحانه ، وترتب على ذلك أن نتلقى منه التكليف ، فكل تكليف من تكاليف الله لخلقه يُعتبر عهداً داخلاً فى إطار الإيمان ؛ لأن الله لا يحكم حكماً أو يبينه لمكلَّف إلا بعد أن يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

أي يا من آمنت بالعهد الأصيل فى القيم وهو العقيدة ، وآمنت بى إلهاً : خذ التكليف منى ؛ لأنك قد دخلت معى فى عهد هو الإيمان .

ولذلك لا يكلف الله بالأحكام كافراً به ، إنما يقول : ﴿ ياأيها الذين آمنوا ولذلك يجب أن نأخذ كل حكم بدليله من الإيمان بمن حكم به ، فلا تبحث عن ا فى كل حكم ، وإنما علة كل حكم أن تؤمن بالذى أمرك أن تفعل كذا ، فعِلَّة كل هى الحكم .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

و « ذلكم » إشارة إلى ما تقدم ، من أول قوله سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إلى أن انتهينا إلى قوله سبحانه :

﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

والتوصية تخصيص للتشريع ؛ لأن التشريع يعم أحكاماً كثيرة جدًّا ، ولكن الوصية التى يوصى الله بها تكون هى عيون التشريع . ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنه عن هذه الآيات : « إنها محكمات لم ينسخهن شىء من جميع الكتب ، وقيل إنهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار » .

ولم يوجد شرع جاء لينسخ واحدة من هذه الوصايا ، ولذلك يقول اليهودى الذى أسلم وهو كعب الأحبار : « والذى نفس كعب بيده إنّ هذه الآيات لأول شىء فى التوراة : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم » . ثم نجد أن هذه الوصية الأخيرة هى جامعة لكل شىء ؛ نجد تسع وصايا قد مرّت ؛ خمسا منها قال فيها : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، وأربعاً قال فيها : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ ، والعاشرة يقول : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ، وهذه الوصية العاشرة هى الجامعة لكل أنواع الفضائل التكليفية إنّها قوله الحق :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا

تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

أى أنه ختم الوصايا التسع بهذا القول ؛ لأن الصراط المستقيم يشمل الوصايا التسع السابقة ويشمل كل ما لم يذكر هنا . وقلت : إننا نلاحظ أن الخمس الأول ذيلها الحق بقوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، والأربع التى بعدها ذيلها الحق بقوله : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ والواحدة الجامعة لكل شىء قال تذييلاً لها : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ .

فما الفرق بين التعقل والتذكر والتقوى ؟

إن الأشياء الخمسة الأولى التى قال الحق فيها :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

هذه الأشياء كانت موجودة فى بيئة نزول القرآن ، إنهم كانوا يشركون بالله ويعقون والديهم ويقتلون الأولاد ويقارفون الفواحش ويقتلون النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، فأوضح لهم : تَعَقَّلُوها ، فإذا ما تعقلتموها تجدون أن تكليف الله بمنعكم من هذه الأفعال ، إنّه أمر يقتضيه العقل السليم الذى يبحث فى الأشياء بمقدمات سليمة ونتائج سليمة ، لكن « الأربع » الأخرى ، هم كانوا يفعلونها ويتفاخرون بها . ففى التى كانوا يعملونها من القيام على أمر مال اليتيم والوفاء فى الكيل والميزان والعدل فى القول والوفاء بالعهد قال : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أى إياكم أن تغفلوها ؛ فإذا كنتم تفعلونها وأنتم على جاهلية ؛ فافعلوها من باب أولى وأنتم على إسلامية . ثم جاء بالوصية الجامعة :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ونظراً لأن هذه الوصية تستوعب كل الأحكام إيجابًا وسلبًا ، نهيًا وأمراً ، فوضح لهم أنه يجب عليكم أن تتبعوا الصراط المستقيم : لتقوا أنفسكم آثار صفات القهر من الحق سبحانه وتعالى ، وأول جنودها النار .

والصراط : هو الطريق المعبّد ، ويأخذون منه صراط الآخرة ، وهو - كما يقال - « أدق من الشعرة ، وأحدّ من السيف » ، ما معنى هذا الكلام ؟ . معناه أن يمشى عليه بيقظة تامة واعتدال ؛ لأنه لو راح يمنة يهوى فى النار ، ولو راح يسرة يسقط فيها ، فهو صراط معمول بدقة وليس طريقاً واسعاً ، بل - كما قلنا - « أدق من الشعرة وأحدّ من السيف » فلتمش على صراط الله ومنهجه معتدلاً ، فلا تنحرف يمنة أو يسرة ؛ لأن الميل - كما قلنا - يبعدك عن الغاية ، إنك إذا بدأت من مكان ثم اختل توازنك فيه قدر ملليمتر فكلما سرت يتسع الخلل ، وأى انحراف قليل فى نقطة البداية يؤدى إلى زيادة الهوة والمسافة .

كذلك الدين ، كلما نلتقى فيه ويقرب بعضنا من بعض ، نسير فى الطريق المستقيم ، وكلما ابتعدنا عن التشريع تتفرق بنا السبل .

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ جلّى بالحركة الفعلية منطوق النسبة الكلامية ، حينما جلس بين أصحابه وخطّ خطًّا . وقال : هذا سبيل الله .

ثم خط خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره ، ثم قال : هذه سبل وعلى كل سبيل منها شيطان ؛ يدعو إليها ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ .

ولذلك فكل أهل الحق ، وأهل الخير كلما اقتربوا من المركز كان الالتقاء ، وهذا الالتقاء يظل يقرب ويقرب ويقرب إلى أن يتلاشى ويصير الكل إلى نقطة واحدة .

وانظر إلى جلال الحق حينما يجعل الصراط المستقيم إليه فى دينه ، منسوباً إلى رسوله : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ فالرسول يسير على هذا الصراط وهو لايغش نفسه ، والذى يفعله ويمشى فيه يأمركم بأن تمشوا فيه ، وهو لم يأمركم أمراً وهو بنجوة وبعد عنه ، ولو غشكم جميعاً لايغش نفسه ، وهذا هو صراطه الذى يسير فيه .

والسبيل هنا معروف أنه إلى الله فكأن سبيل الله هو طريق محمد ﷺ . ونسب الفعل والحدث لله وحده ؛ ففى البداية قال : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ ، ثم قال : «سبيله» فالصراط لم يعمله محمد لنفسه ، ولكن أراده الله للمؤمنين جميعاً ، ورسول الله هو الذى يأخذ بأيديهم إليه .

وحين ننظر إلى كل الخلافات التى تأتى بين الديانات بعضها مع بعض ، بين اليهودية والنصرانية على سبيل المثال :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ .. (١١٣) ﴾ [سورة البقرة]

والمشركون قالوا : لاهؤلاء على شىء ، ولاهؤلاء على شىء :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ .. (١١٣) ﴾ [سورة البقرة]

أى أننا أمام ثلاثة أقوال : اليهود قالوا : ليست النصارى على شىء ، والنصارى قالوا : ليست اليهود على شىء ، وقال الذين لايعلمون - وهم أهل مكة - مثل قولهم ، ثم نجد الدين الواحد منهما ينقسم إلى طوائف متعددة ، وكل طائفة لها شىء تتعصب له . وترى أن الذى تقول به هو الحق ، والذى يقول به غيرها هو الباطل ، وكيف ينشأ هذا مع أن المصدر واحد ، والتنزيلات الإلهية على الرسل واحدة؟! إن

آفة كل هذا تنشأ من شهوة السلطة الزمنية ، وكل إنسان يريد أن يكون له مكانة ونفوذ وخلافة . وهذا يريد أن يتزعم فريقاً ، وذاك يريد أن يتزعم فريقاً ، ولو أنهم جُمعوا على الطريق الواحد لماكانوا فرقاء .

ونجده ﷺ يقول : «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة»[1] .

وفى راوية : «كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة » ، والجماعة : هم أهل السنة والجماعة ، وفى رواية : «ماأنا عليه وأصحابى» .

ونلاحظ دقة هذا القول فى عدد المذاهب والفرق ، وإن كنتم لاتسمعون عن بعضها لأنها ماتت بموت الذين كانوا يتعصبون لها ، والذين كانوا يريدون أن يعيشوا فى جلالها .

إذن الآفة تأتى خير ننظر حين إلى حكم من الأحكام ، يرى فيه واحد رأيا ، ويأتى الآخر فيرى فيه رأيا آخر ، لالشىء إلا للاختلاف . ونقرل لهم : انتبهوا إلى الفرق بين حكم مُحْكَم ، وحكم تركه الله مناطاً للاجتهاد فيه ، فالحكم الذى أراده الله محكماً جاء فيه بنص لايحتمل الخلاف ، وهذا النص يحسم كل خلاف . والحكم الذى يحبه الله من المكلّفين تخفيفاً عنهم على وجه من الوجوه يأتى بالنص فيه محتملاً للاجتهاد ، ومجىء النص من المشرع فى حكم محتمل للاجتهاد هو إذن بالاجتهاد فيه ؛ لأنه لو أراده حُكما لانختلف فيه لجاء به محكماً .

والمثال المستمر ماتركه لنا رسول الله ﷺ فى سنته الشريفة ، فحينما أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يضع السلاح قبل أن يؤدب بنى قريظة ، وهم من شايعوا مشركى مكة فى الحرب . فقال ﷺ : «لايُصَلِّيَنَّ أحد العصر إلا فى بنى قريظة»[2] .

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة .
(٢) رواه البخارى فى المغازى ، والبيهقى فى الدلائل والسنن .

فذهب الصحابة فى طريقهم إلى بنى قريظة ، وآذنت الشمس بالمغيب وهم فى الطريق فانقسم صحابة رسول الله إلى قسمين : قسم قال : نصلى العصر قبل أن تغيب الشمس ، وقال قسم آخر : قال رسول الله لا نصلين العصر إلا فى بنى قريظة . فصلى قوم العصر قبل مغيب الشمس ، ولم يصل الآخرون حتى وصلوا إلى بنى قريظة ، ورفعوا أمرهم إلى المشرع وهو رسول الله ، فأقرّ هذا ، وأقرّ هذا ، لأن النص محتمل .

لماذا ؟ . لأن كل حدث من الأحداث يتطلب ظرفاً له زمان ومكان ؛ فالذين قالوا إن الشمس كادت تغرب ولابد أن نصلى العصر قبل مغيبها نظروا إلى الزمان . والذين قالوا لا نصلى إلاّ فى بنى قريظة نظروا إلى المكان . وحينما رُفِعَ الأمر إلى المشرع الأعلم أقرّ هؤلاء وأقرّ هؤلاء .

إذن فالحكم إن كان فيه نص محكم فلا احتمال للخلاف فيه . وإن كان الله قد تركه موضعاً للاجتهاد فيه فهو يأتى لنا بالنص غير المحكم . ومَن ذهب إليه لا يصح أن نخطئه ، ولذلك بقى لنا من أدب الأئمة الذين بقيت مذاهبهم إلى الآن بعضهم مع بعض . نجد الواحد منهم يقول : الذى ذهبت إليه صواب يحتمل الخطأ ، والذى ذهب إليه مقابلى خطأ يحتمل الصواب ، وجميل أدبهم هو الذى أبقى مذاهبهم إلى الآن ، وعدم أدب الآخرين جعل مذاهبهم تندثر وتختفى ولا تدرون بها ، والحمد لله أنكم لا تدرون بها .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

ونحن إذا سمعنا كلمة « ثم » نعلم أنها من حروف العطف ، وحروف العطف